٦ - الغزالى بين الأنصار والخصوم

إن من يقرأ ما كتب الغزالى بتمعن..

ومن يقرأ ما كتبه عنه الدارسون له .. وما كتبه علماء عصره وفلاسفته، سوف يجد نفسه أمام شخصية لها من القوة والمهابة والجلال ما لا يمكن إنكاره .. وسوف يجد - إذا أراد أن يصدر حكمًا موضوعيًا - أن هذا الرجل يعتبر واحدًا من أعظم ما أنجب الفكر الإسلامى .. رغم أن أعداءه حاولوا أن يسلبوه كل ما يميزه كرجل عظيم .. وعالم عظيم .. وإمام من أعظم الأئمة .. وفيلسوف من أعظم الفلاسفة .. رغم أن بعضهم غالى فى عداوته حتى وصفه بالجاهل الشرير .. وقد وصف الغزالى من ابن رشد هذا الوصف .. لأنه فك رموز الفلسفة .. وبسطها للناس حتى كاد يفهمها العامة .. ثم أعلن عليها حربًا شعواء على اعتبار أنها تضل الناس ولا تنفعهم.. وأن الفلاسفة يسيرون فى طريق مسدود لا يوصل إلى الحقيقة..

فالمهتمون بالفلسفة .. والمؤمنون بها .. لا ينسون هجومه العنيف على الفلسفة .. وعلى الخصوص على الفيلسوفين الفارابى وابن سينا .. فى كتابه « مقاصد الفلاسفة » .. وقد كان هذا الكتاب بمثابة تمهيد لكتابه « تهافت الفلاسفة»..

إننا نراه يقرر بعد دراسته للفسلفة .. أنها لا تثمر الحقيقة عندما نراه يقول:

« إن الوقوف على فساد المذاهب .. قبل الإحاطة بمداركها محال.. بل هى رمى فى العماية والضلال .. فرأيت أن أقدم على بيان تهافتهم كلامًا وجيزًا .. مشتملاً على حكاية مقاصدهم من علومهم المنطقية والطبيعية والإلهية من غير تمييز بين الحق فيها والباطل.. »

ثم نراه بعد أن ألف هذا الكتاب .. يوجه هجومه العنيف والشامل على الفلسفة .. كاشفًا عما فيها من غموض وزيف .. وبعد عن الواقع .. حتى إننا رأينا من يقول إن الغزالى بحملته على الفلسفة قد قضى عليها فى المشرق العربى .. وجعلها مثالاً للسخرية.. وأصبح الناس يخشونها .. ولا يحاولون الاقتراب منها فترة من الزمن..

ثم رأينا كيف أن الغزالى فى كتابه الضخم « إحياء علوم الدين» والذى يحوى فصولاً فى العبادات .. والتصوف .. والفقه .. يهاجم الفلسفة والفلاسفة .. حتى اعتقد البعض أن قراءة الإحياء تغنى الإنسان عن الكتب الأخرى..

وطبعًا هذه مغالاة من الذين عشقوا فكر الغزالى عشقًا مغالى فيه .. حتى نزهوه عن أى خطأ .. مع أننا يجب أن ننظر إليه كعالم مجتهد .. وفقيه عظيم .. ومفكر من أكبر مفكرى الإسلام .. ولكن آراءه يمكن أيضًا أن تناقش .. ويمكن أن نعارضه فى بعضها لأنه بشر .. والبشر دائمًا عرضة للخطأ .. كما أنه ليس معصومًا .. لأن العصمة لله وحده..

ومهما يكن من شىء . . فإن الغزالى مهما هاجمه الحاقدون فقد أسدى للإسلام أجل الخدمات . . وعاد بالناس إلى المنبع الأصيل للإسلام . . ومنبع الإسلام الأصيل هو الكتاب والسنة . . لقد كان الغزالى كما عرفنا شافعى المذهب . . وكان يرى أن الإنسان لو رأى إنسانًا آخر يطير فى الهواء . . ولا يؤدى الفرائض فهو دجال . . وأن على المسلم الحق أن يواظب على الفرائض التى أقرها الشرع . . ثم إنه بالعبادات والتطهر والمجاهدة يمكن أن يصل إلى اللَّه . . وأن تتجلى له من الأنوار والمكاشفات ما لا يخطر على البال . . وأن قلبه يمكن أن يمتلئ بأنوار المعرفة . . فيكشف أستار الغيب . . ويصل إلى مرتبة من العلم اللدنى ما لا يمكن أن يتصوره عقل أو يتناهى إليه خيال . .

وهذا يأتى بالمعاناة والمجاهدة الشخصية وسلوك طريق الله .

ولم يكن من المعقول أن تكون شخصية قوية كشخصية الغزالى . . له هذا المنطق . . وهذه العبقرية . . وهذه القدرة الهائلة فى النقاش . . وإفحام الخصوم . . حتى أصبح علما من أعلام المدرسة النظامية . . وأصبح ملء الأسماع والأنظار . . لا يمكن لشخصية كهذه الشخصية التى هاجمت أهل الفقه الذين يتقربون إلى الحكام طمعًا فى الولاية . . أو طمعًا فى جاه . . أو منصب . . فصب عليهم الغزالى هجومًا عنيفًا ضاريًا . . ما كان لمثل هذه الشخصية إلا أن نجد لها كارهين وحاسدين . .

فقد كرهه الفلاسفة . .

وكرهه بعض رجال الفقه . .

كما كرهه الذين اكتشف الغزالى تنكرهم فى أزياء التقوى والصلاح وما هم بأتقياء ولا صالحين . .

لقد وهب نفسه للكشف عن الحقيقة والبعد عن الزيف . .

كما ركز جهده على محاربة المدعين . . فى الفكر . . والحياة . . وكل هذا قطعًا جر عليه حسد الحاسدين وكره الكارهين . . إنه يرسم لما أعد نفسه له فى كتابه «المنقذ من الضلال»، فيقول:

« ولم أزل فى عنفوان شبابى منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن . . وقد أناف السن على الخمسين أقتحم لجة هذا البحر العميق وأخوض غمرته خوض الجسور . . لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل فى كل مظلمة . . وأتهجم على كل مشكلة . . وأقتحم كل ورطة . . وأتفحص عقيدة كل فرقة . . وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة . . لأميز بين محق ومبطل . . ومتفنن ومبدع . . لا أغادر باطنيًا إلا وأحب أن أطلع على بطانته . . ولا ظاهريًا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته . . ولا فلسفيًا إلا وأقصد الوقوف على كفة فلسفته . . ولا متكلمًا إلا وأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته . . ولا صوفيًا إلا وأحرص على العثور على سر صفوته . . ولا متعبدًا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته . . ولا زنديقًا معطلاً إلا وأتجسس وراءه للتنبيه لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته . .

وقد كان التعطش إلى إدراك حقائق الأمور دأبى وديدنى من أول

الأمر وريعان عمرى وغريزة وفطرة من الله - تعالى - وضعها فى جبلتى حتى انحلت عنى رابطة التقليد وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد الصبا» . .

واضح من الكلام . . أننا أمام فارس من فرسان الفكر . . لا يريد أن يفوته شىء إلا ويعرف عنه كل شىء . . يريد أن يعرف أسرار المذاهب والأفكار والنحل والملل . . الذين اهتدوا والذين ضلوا . . والذين وفقوا . . والذين فشلوا . . إنه يريد أن يعرف الحقيقة . . ولكى يعرف الحقيقة لابد أن يدرس كل ما حوله . . ويتحقق منه على معرفة ثم يصدر حكمه . .

إنسان بهذه الشجاعة العقلية كان لا بد أن يكون له حساده . . وأعداؤه . . لأنه إنسان قرر أن يضع لنفسه قاعدة متينة ينطلق منها لمعرفة ما حوله من الأشياء . . إنه ليس عبدًا للقديم المتوارث . . ولكن لابد أن يفحص كل شىء ثم يدرسه . . ثم يطلق أحكامه . . كشأن أى مجتهد . .

وليس معنى هجوم الغزالى على الفلاسفة والفلسفة أنه لم يكن فيلسوفًا . . وإنما كان على حد تعبير ابن العربى - وهو من أصحابه - « شيخنا أبو حامد دخل فى بطون الفلاسفة . . ثم أراد أن يخرج منها فما قدر »

وأعتقد أن الغزالى . . وقد شك شكًا منهجيًا ليصل إلى اليقين . . ودرس الفلسفة الإغريقية وقارن بينها وبين الفلسفة الإسلامية . . ثم

أراد أن يدافع عن الإسلام بأساليب الفلاسفة.. حتى أصبح حجة الإسلام..

ومن هنا كان تفلسف الغزالى من أجل الدفاع عن الإسلام .. ومن هنا كان كتابه «تهافت الفلاسفة» الذى ألفه عام ٤٨٨ هجرية .. كان يحاول فيه أن يوضح تناقض الفلاسفة وتهافت أفكارهم .. ولم يجد الهداية إلا عن طريق التصوف .. والتصوف وسيلته هى الكشف.. حتى تنجلى للمتصوف الأنوار عن طريق العلم اللدنى.. وقد كانت رحلة التصوف هى آخر مراحل حياته الفكرية..

والتصوف عند الغزالى يأتى بالكشف والمجاهدة..

ولقد هاجم الغزالى البعض حتى اتهموه بالإلحاد .. أو التناقض فى أفكاره..

هاجمه الفلاسفة .. وكان لا بد أن يهاجموه .. لأنه سهل الفلسفة للعامة .. وكشف ما كان فيها من زيف .. وكان على رأس من هاجموه ابن رشد .. الذى أتى بعده بحوالى قرن من الزمان .. كما هاجمه الفيلسوف ابن باجة وغيرهما..

والذى يقرأ فلسفة الغزالى .. لا يرى هناك تناقضًا فى أفكاره.. كما ادعى ذلك معارضوه..

لقد قالوا مثلاً إنه قال إن وسيلة المعرفة هى الكشف والمجاهدة.. وهاجم العقل كوسيلة للمعرفة .. ولكنه رد على الباطنية بمنطق العقل..

ان الغزالى لم يكفر بالعقل ولا بالحواس . . ولكنه أصر أن هناك مجالات لا تقع تحت سلطان العقل والحواس . . فمثلاً نحن نرى النجم فى حجم الدينار . . فى حين أن هذا النجم أكبر من الأرض . . ونعرف ذلك عن طريق العقل . . فالحواس محدودة . . والعقل مجاله أوسع . . ولكن العقل يتنافى مع الوحى .

مثلاً هناك بعض الفلاسفة يقولون بأن اللَّه يدرك الكليات دون الجزئيات . . فهذا يتنافى مع الوحى . . والوحى . . لا يناقض العقل . . ولكن يدرك ما لا يدرك العقل . . وهكذا . . فالغزالى لم يناقض نفسه عندما هاجم الباطنية بمنطق العقل، فالغزالى يهاجم العقل على أساس أنه ليس هو الوسيلة الوحيدة للمعرفة . . فهناك مجالات لا يمكن للعقل أن يصل إليها . . وكذلك الحواس . .

فهناك أشياء يعرفها الإنسان عن طريق الوحى . . كما أخبر النبى ﷺ بها عن هذا الطريق . .

وأهم الوسائل للمعرفة بعد الوحى هو الكشف . . الذى يراه قلب المؤمن الطيب . . إن قلب المؤمن هنا يصبح وسيلة التقاط . . وسيلة استقبال . . كالراديو بلغة العصر الحديث . . يستقبل ويرسل . . وهو صادق فى إرساله واستقباله . .

والقلب الخبيث . . لا يمكنه أن يرسل أو يستقبل كجهاز الراديو الفاسد . . يصبح آلة صماء بكماء . . عمياء . . فكلما كان القلب نقيًا ورعًا . . زاهدًا فى الدنيا . . يعيش باللَّه . . وفى اللَّه . . كلما

صفا هذا الجهاز الدقيق . . وكلما كان استقباله للمعارف الإلهية أكثر دقة . .

ولهذا قال الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه:

« لو كشف لى الغطاء ما ازددت يقينا » . .

إن الغزالى عندما اتخذ العقل وسيلة للمعرفة . . كان يريد أن ينقى الدين مما علق به من أوهام الفلاسفة . . وإلحاد الزنادقة . . وشطحات الخيال . . وجهل الكثيرين بالدين على حقيقته . . ويريد أن ينقيه من خرافات بعض رجال الصوفية الذين فهموا الدين فهمًا خاطئًا . . فكانوا أقرب إلى المشعوذين منهم إلى رجال عرفوا اللّه حق المعرفة . .

كما أنه فى هجومه على الفلاسفة . . كان محقًا تمامًا . . فقد كان مما يدعو للإعجاب أن ينبهر بعض الفلاسفة بآراء أرسطو وأفلاطون مثلاً . . ويرون أن فى هذه الأقيسة المنطقية من البراهين ما هو أدق من الحقائق التى جاء بها وحى السماء!! . .

إنه أراد أن يعيد الناس إلى النبع الصافى . . إلى الإسلام فى بساطته . . وروحه . . وسماحته . . وقوة تأثيره على النفوس والقلوب . . لهذا لم يعتقد بأى شىء يبعد الإنسان عن السنة النبوية الكريمة . . وإن كان درس كل ما فى عصره من علوم . . فلا لشىء إلا ليتحرى تلك الرسالة الجليلة التى وهب نفسه للدفاع عنها . . واستحق بجدارة أن يلقب بحجة الإسلام . .

ومن هنا كان واحدًا من المجددين العظام .. فى تاريخ الفكر الإسلامى..

فقد درس .. وتعب .. وجد واجتهد..

وكانت أمنيات حياته بعد أن صار من أعظم علماء بلاده .. أن يهبه الله إيمان العوام..

هذا الإيمان البسيط .. الذى لا يحتاج إلى فلسفة .. ولا إجهاد عقل .. ولا ضرب أخماس فى أسداس..

هذا الإيمان الذى يعيد للإنسان الأمن والأمان .. وهل هناك أكثر من سعادة النفس المؤمنة التى تصبر فى الشدائد .. وتقبل أهوال الحياة بالسكينة .. وتشكر أنعم الله عليها .. حتى إذا عبرنا هذا الجسر القصير .. جسر الحياة .. ورجعنا إلى اللّه .. عشنا فى نعيم اللّه فى الآخرة..

هذا الإيمان البسيط بلا تعقيد .. وبلا سفسطة .. هو الذى يشعر الإنسان بالسعادة .. والإيمان بقضاء اللّه وعدله..

وما أكثر الفلاسفة الذين قرأنا عنهم ودرسنا سيرتهم فى مختلف العصور .. وقد أرهقهم الفكر .. وحملوا عقولهم أكثر من قدراتها.. وكانت نهايتهم مفزعة ورهيبة .. فالفيلسوف نيتشه الذى كان يتحدث عن العفن الإلهى .. فى الوقت الذى يتحدث فيه عن فلسفة القوة.. عاش حياته معتل الصحة .. وجن فى أخريات حياته..

وأصبحت أفكاره وفلسفته هى المتعفنة..

وما أكثر الفلاسفة الذين عاشوا فى قلق وتوتر .. وعدم استقرار.. وكانت حياتهم جحيمًا لا يطاق فى غياب اليقين.. فى غياب الإيمان باللّه .. وماتت فلسفاتهم بعد مماتهم .. أو فى حياتهم أيضًا .. لأن هؤلاء الفلاسفة لن يخرقوا الأرض ولن يبلغوا الجبال طولاً.. فعاشوا فى وهم حسبوه يقينًا .. وأصبحت حياتهم نفسها وهمًا من الأوهام..

لقد هاجم الكثيرون الغزالى .. وذهبت أصواتهم وأصبحت صدى خافتًا لم يلبث أن يتلاشى فى أمواج العدم .. وظل فكر هذا الرجل ناصعًا .. قوى الحجة .. بالغ الجلال..

لأنه صوت نابع من إيمان حقيقى .. من إنسان عرف طريقه وموضع خطاه .. وأراد أن ينتفع كل مسلم بما وصل إليه .. ومن هنا كانت مؤلفاته علامات طريق فى الفكر الإسلامى..

ولنقف قليلاً أمام نص من النصوص التى كتبها الغزالى .. ونتأمل مافيها من جمال وجلال .. إنسان يشعر أن أيامه فى الدنيا قليلة.. وكل إنسان فى الدنيا أيامه قليلة .. إنه يعاتب نفسه .. يريد أن يجعلها تسلك الطريق السليم .. لأن كل ما فى الحياة من مغريات.. وكل ما فيها من نعيم : الغنى .. والجاه .. والسلطان.. كل هذه أمور نهايتها الزوال .. ولا يبقى للإنسان إلا ما قدم من خير أو شر..

لنقرأ معًا ما كتبه الغزالى وهو يخاطب النفس . . يلومها . . ويحثها على السير فى طريق النور . . فى كتابه الإحياء:

« يا نفس ما أعظم جهلك . . تدعين الحكمة والذكاء والفطنة . . وأنت أشد الناس غباوة وحمقًا . . يا نفسى . . لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكرهينه . . كيف كان غضبك عليه ومقتك له؟

فبأى جسارة تتعرضين لمقت اللَّه وغضبه وشديد عقابه؟

ويحك يا نفس!!

طالما لا تؤمنين بالحساب . . وتظنين أنك إذا مت وانفلت وتخلصت؟ وهيهات . . فإن كنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك . . وآمنت به . . فما لك تسوفين العمل والموت لك بالمرصاد . . فإذا كنت أيتها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجلية . . وتركنين إلى التسويف . . فما بالك تدعين الحكمة . . وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة؟ !

يا نفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته فتجمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الأسباب؟ أتظنين أيتها النفس أن زمهرير جهنم أخف بردًا وأقصر مدة من زمهرير الشتاء؟!

ويحك يا نفس!!

انزعى عن جهلك . . وقيسى آخرتك بدنياك . . إن كنت تعتقدين فى نفسك العقل والذكاء . .

يا نفس . . ما أعجب أمرك . وأشد جهلك . . وأظهر طغيانك . . ولعلك يا نفس أسكرك حب الجاه . . فكيف تبيعين يا نفسى ما يبقى أبد الآباد . . بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة؟!

فإن كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة فى الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك . . فما بالك لا تتركينها ترفعًا عن خسة شركائها . . وتنزهًا عن كثرة غبائها . .

ويحك يا نفس؟!

قد أشرفت على الهلاك . . واقترب الموت . . وورد النذير . . فمن ذا يصلى عنك بعد الموت ؟ ومن ذا يصوم عنك بعد الموت؟ ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت؟ أما تعلمين يا نفس أن الموت موعدك؟! والقبر بيتك . . والتراب فراشك . . والدود أنيسك . . والفزع الأكبر بين يديك!!

أما علمت يا نفس . . أن عسكر الموتى عندك على الباب ينتظرونك وقد آلوا عن أنفسهم بالأيمان المغلظة . . أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم؟!

أما تعلمين يا نفس؟!

أنهم يتمنون المراجعة إلى الدنيا ليشتغلوا بتدارك ما فرط منهم . .

يا نفس . .

إن المذنب امتن من القدرة . . وإن الغدرة لا تظهر غيرها . . فلا تطمعين فى تطهير غيرك وأنت غير طيبة فى نفسك؟

ويحك يا نفس!

لو عرفت نفسك حق المعرفة..

ويحك يا نفس .. ما أغدرك! ويحك يا نفس .. ويحك يا نفس ما أوقحك .. ويحك يا نفس ما أجهلك! وما أجرأك على المعاصى! ويحك كم تعقدين فتفضين .. ويحك كم تعهدين فتغدرين .. ويحك يا نفس .. أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك.. كأنك غير مرتحلة عنها .. أما تنظرين إلى أهل القبور؟!!

ويحك يا نفس .. أما لك بهم عبرة ؟ أما لك إليهم نظرة ؟ أحذرى أيتها النفس السكينة .. يوم آل اللّه فيه على نفسه ألا يترك عبدًا أمره فى الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله .. ودقيقة وجليلة.. سره وعلانيته ؟ فانظرى يا نفس بأى بدن تقفين بين يدى اللّه؟

وبأى لسان تجيبين ؟ واعلمى يا نفس .. أن ليس للدين عوض.. ولا للإيمان بدل .. فاتعظى يا نفسى بهذه الموعظة واقبلى هذه النصيحة .. فإن من أعرض عن الموعظة فقد رضى بالفكر .. وما أراك بها راضية .. ولا لهذه الموعظة واعية »..

بهذا الأسلوب الأخاذ .. وبهذه العبارات ذات المضامين المستنيرة كان يكتب الغزالى .. مستمدًا كل هذا من كتاب اللّه وسنة رسوله..

غير أننا نجد أن الغزالى رغم ما قدمه للفكر الإسلامى .. فإن بعض المستشرقين الذين قدموا دراسات مطولة عند بعضهم وضعه فى

مكانه الصحيح .. وعرف مكانته ووزنه .. وبعضهم كان شديد الحقد عليه .. وبعضهم الآخر ادعى أن تصوف الغزالى كانت له بذور من الفلسفات الأخرى .. لأنهم من خلال ذلك يريدون أن يسيئوا للإسلام .. أو على الأقل يبينوا أن الإسلام لا يمكن أن يظهر فيلسوفًا عميقًا مجددًا دون أن يعتمد على مؤثرات نصرانية .. كما نرى فى كتاب «البارون كارادفو» .. والذى يحاول أن يجعل من بعض أفكار الغزالى صدى لفلسفات دخيلة على الإسلام .. فعندما يتحدث عن رأى الغزالى فى الاقتصاد مثلاً .. يعلق على ذلك البارون بقوله:

« إن مؤلفنا - يقصد الغزالى - لا يبدو واقيًا قدم صادرًا عن مأثور يونانى ولا عن تعليم فقهاء الإسلام الذين لهم طابع آخر.. بل يلوح ارتباطه كما هو الأحرى بمأثور لاتينى وبمأثور مشبع من شعور نصرانى !! وسنشعر كما أرى بأثر مماثل عندما نقرأ ما أفرد للألفة من صفحات رائعة..

قال الإمام : إن الألفة ثمرة حسن الخلق .. والتفرق ثمرة سوء الخلق .. فحسن الخلق يوجب التحاب والتوالف والتوافق . وسوء الخلق يثمر التباغض والتحاسد والتدابر .. ومهما كان المثمر كانت الثمرة محمودة .. وحسن الخلق لا توزن به فى الدين فضيلة أخرى قال النبى ﷺ :

« أكثر ما يدخل الجنة تقوى اللّه وحسن الخلق»..

وقال النبى أيضًا:

« المؤمن إلف مألوف . . ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف».

وقال النبى أيضًا:

« مثل الأخوين إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى . . وما التقى مؤمنان قط إلا أفاد اللّه أحدهما من صاحبه خيرًا » . .

وبعد أن يقتبس البارون كارادفوا هذه المقتطفات من كتب الإحياء . . يعلق قائلاً :

« ومن ثم ترى بلا عناء أننا لسنا هنا فى حقل يونانى . . بل فى حقل بيت فيه زرع إنجيلى » . .

ودافع هذا أن هذا المؤلف يحاول أن يغض من قيمة الغزالى وبأنه متأثر بالإنجيل . . وكأن ما أورده من أحاديث الرسول ﷺ جاءت من الإنجيل لا من سنة النبى ﷺ . . إنه من التعصب الأعمى بلا شك أبعد ما يكون عن الموضوعية العلمية . .

ونرى « ت . . جـ . . دى بور » فى كتابه « تاريخ الفلسفة فى الإسلام » . . يلقى نظرة إجمالية على فلسفة الغزالى بعد أن يشرحها شرحًا عميقًا فيقول:

«ولا ريب أن الغزالى أعجب شخصية فى تاريخ الإسلام . . ومذهبه صورة لشخصيته . . زهد الغزالى فى محاولة تفهم هذا العالم أو حب الدنيا . . ولكنه أدرك أن المسألة الدينية أعمق مما أدركها فلاسفة عصره . . فقد كان هؤلاء الفلاسفة عقليين فى نزعتهم . .

شأن أسلافهم اليونان .. فاعتبروا أن مقررات الدين ثمرة للقوة المتخيلة أو الوهم من جانب الشارع .. بل ثمرة لهواه .. ورأوا أن المتدينين .. إما انقيادًا وطاعة عمياء «عند البعض» أو ضربًا من المعرفة فيه حقائق أو فى مرئية من حقائق الفلسفة عند البعض الآخر..

يعارض الغزالى هذا الرأى بأن يبين أن الدين ذوق وتجربة من جانب القلب والروح .. وليس مجرد أحكام شرعية .. أو عقائد تلقى .. بل هو أكثر من ذلك .. هو شىء يحسه المتدين .. بروحه إحساسًا حيًا..

ولا يحس كل إنسان بروحه ما يحس به الغزالى .. والذين لا يستطيعون متابعته إذ يعرج على أجنحة التصوف فى مدارج السالكين.. متخطيًا حدود المعارف التى يمكن اكتسابها بالتحصيل العادى .. لا محيص لهم عن الإقرار بأن محاولاته فى الوصول إلى اللَّه مهما كان من مغامرة فى ميادين المجهول .. ليست أقل فى تاريخ العقل الإنسانى من مسالك فلاسفة عصره .. وإن بدت هذه المسالك أدنى إلى اليقين .. لأن أصحابها إنما ساروا فى بلاد قد كشفها غيرهم من قبل»..

ونرى « الدكتور زويمر » يقول:

« كل باحث فى تاريخ الإسلام .. يلتقى بأربعة من أولئك الفطاحل .. وهو محمد النبى .. والبخارى .. والأشعرى .. والغزالى »..

وقد بلغت من قوة شخصية الغزالى الفكرية أن اعتقد بعضهم ومنهم وأستفليد الألمانى أن الغزالى نشأ فى بيئة علمية خالصة . . أى أن والده وأمه كانا من العلماء . . مع أن والده كان رجلاً لا يعرف حتى القراءة والكتابة . . ولكنها العبقرية هى التى كانت لها سمة بارزة من سمات الغزالى . .

ولا شك أن الصوفية بلغت بالغزالى مكانًا مرموقًا فى الإسلام على حد تعبير المستشرق «ماكدونالد» الذى تخصص فى دراسة الغزالى.

ولقد عبر الإمام المراغى عن تلك العبقرية بقوله:

« إذا ذكر ابن سينا أو الغزالى خطر بالبال فيلسوفان عظيمان . . وإذا ذكر ابن العربى خطر بالبال رجل صوفى . . له فى التصوف آراء لها خطورتها » . .

وإذا ذكر البخارى ومسلم وأحمد خطر بالبال رجال لهم أقدارهم فى الحفظ والصدق والأمانة والدقة ومعرفة الرجال . .

أما إذا ذكر الغزالى . . فقد تشعبت النواحى . . ولم يخطر بالبال رجل واحد . . بل خطر بالبال رجال معدودون لكل واحد قيمته وقدرته . . يخطر بالبال الغزالى الأصولى الماهر . .

والغزالى الفقيه الحر . .

والغزالى المتكلم إمام أهل السنة وحامى حماها . .

والغزالى الاجتماعى الخبير بأحوال العالم .. وخفيات الضمائر.. ومكونات القلوب..

والغزالى الفيلسوف .. أو الذى ناهض الفلسفة وكشف عما فيها من زخرف وزيف..

والغزالى المربى .. والغزالى الصوفى الزاهد .. وإن شئت فقل.. يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره..

هذه صورة تحليلية عن الرجل الذى أثرى الفكر الإسلامى .. وامتد أثره عبر قرون كثيرة .. وما زال رمزًا لحيوية الفكر الإنسانى وانطلاقه..

* * * * *

obeikandl.com